إن الإحصائيات العالمية المرتبطة بالأشخاص اللادينيين الذين لا يتبعون أى دين محدد، أو الملحدين الذين لا يؤمنون بوجود الله جل علاه، هذه المعطيات الإحصائية تندرج ضمن ما يسمى بديموغرافية الإلحاد، ويواجه الباحثون فى هذا الإطار العديد من الصعوبات للحصول على بيانات حقيقية لديموغرافية الإلحاد عبر العالم وبين هذه الصعوبات نذكر: أولاً : أن مفهوم الإلحاد يختلف باختلاف الثقافات واللغات البشرية فى مختلف بلدان العالم، ثانياً: إن فئة لا يستهان بها من الملحدين يكتمون معتقداتهم الإلحادية ولا يعبرون عنها بشكل علنى لتجنب الانتقادات اللاذعة والنفور الاجتماعى من طرف الأشخاص المحيطين بهم خصوصاً فى الدول ذات الغالبية المتدينة، ثالثاً: هناك بعض الحكومات فى عدة مناطق من العالم تروِّجُ للإلحاد بشدة، لهذا قد يجرى الإبلاغ من طرفها عن نسبة إلحاد مبالغ فيها، فى حين أن الدول المتدينة التى تُدين الإلحاد قد تتفادى التصريح عن نسبة الإلحاد الحقيقية فى بلدانها.

الدوافع النفسية الفطرية للإيمان فى قلوب الملحدين

١. تعريف أوّلى لمفهوم الإلحاد

وللتمكن من الوصول إلى الأعداد الحقيقية للملحدين، وتحفيز الأشخاص المساهمين فى الدراسات الإحصائية على التعبير عن آرائهم ومعتقداتهم المسكوت عنها بخصوص وجود الله تبارك وتعالى والإيمان بالأديان، فإن الباحثين فى هذا الإطار وسعوا دائرة الدراسة من مجرد طرح السؤال: هل أنت مؤمن أم ملحد؟، بل إن أغلب الدراسات تحاول أن ترصد إحدى الحالتين الآتيتين: فقد تقيس عدد الأشخاص غير المتدينين فقط لا عدد الملحدين الفعليين أو قد تجمع بين الاثنين.

كما ينبغى أن نميز فى إطار دراسة الإلحاد بين ثلاث فئات أساسية وهى: أولا: المتدينون: وهم الأشخاص الذين يؤمنون بالله تبارك وتعالى ويمارسون طقوسا دينية معينة كالمسلمين والمسحيين واليهود. ثانياً: اللاأدريون: وهم الأفراد الذين يؤمنون بالله عز وجل لكنهم لا يتبعون أى دين، سواء أكان من الديانات السماوية كالإسلام والمسيحية واليهودية، أو الديانات الأرضية كالبوذية والهندوسية الذين يعبدون أصناماً وآلهة من دون الله تعالى، أو يقدسون الحيوانات أو مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم. ثالثاً: الملحدون: وهم الذين ينكرون وجود الله جل علاه ولا يعترفون بالأديان كلها سواء منها السماوية أو الأرضية.

وبشكل عام فإن أغلب الدراسات العلمية غالباً ما تكون فيها النسب المئوية للمؤمنين بالله تعالى أكبر من عدد الملحدين واللاأدريين، وهذا أمر طبيعى لأن الإنسان بفطرته السليمة يهتدى إلى وجود الله تعالى، والتدين غريزة متأصلة فى الإنسان ولا يزيغ عن هذه الفطرة إلا من يعاند ويتكبر ويتنطع ويتنكر لطبيعته النفسية البشرية المتآلفة والمتناغمة مع الذات الإلهية.

كما أن الشخص الذى يزيغ عن فطرته السليمة ويُصرح بأنه لا يعترف بالدين أو أنه ملحد، فإنه يشعر وهو يعبّر عن ذلك بإرباك شديد وحرج كبير، لأنه من ليس له انتماء دينى يُنظر إليه نظرة دونية ويحتقره الناس لأنه دخل فى عداوة مع الله تبارك وتعالى الذى خلقه وسوّاه بيديه الكريمتين، والإنسان الذى لا ينتمى إلى الله جل علاه يرتمى فى أحضان الشيطان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إعلان العداوة مع الدين الحق الذى يمثل القيم الحميدة والنبيلة تُعرِّض صاحبها للانزلاق فى مستنقع المعتقدات غير الدينية فيكون بذلك أبعد من الصواب وأقرب للخطأ، ويكون أبعد من الحقيقة وأقرب للسباحة الفكرية فى بحر الأوهام فيصبح بالتالى نافراً من الأخلاق الحميدة ويتحلى بسلوكيات قبيحة.

٢- إحصائيات الملحدين فى العالم

حسب عالم الاجتماع الأمريكى فيل زوكرمان تتراوح التقديرات العامة والشمولية للأشخاص الذين لا يؤمنون بوجود إله مبدع لهذا الكون ما بين ٥٠٠ و ٧٥٠ مليون شخص عبر العالم، وهناك تقديرات أخرى تفيد بأنه ما بين ٢٠٠ و٢٤٠ مليون شخص حول العالم يُعرِّفون أنفسهم بأنهم ملحدون، أغلبهم متواجدون فى الصين وروسيا.

ووفقاً للمراجعات المتعددة لمجموعة من الدارسات الإحصائية التى قام بها عالما الاجتماع أرييل كيزار وجوهام نافاروا فقد توصلا معاً إلى أن العدد الأقرب للحقيقة والمعدل المتوسط للإلحاد الأكثر موضوعية يتراوح ما بين ٤٥٠ و٥٠٠ مليون ملحد متيقن، ولا أدرى أولا دينى حول العالم، يمثل ٧٪ من سكان العالم مع وجود ٢٠٠ مليون ملحد متيقّن فى الصين وحدها، أى أن أكثر من ثلث سكان العالم من الملحدين متمركزين فى دولة واحدة ألا وهى الصين.

وحسب قواعد البحث فى علم الاجتماع فإن الإلحاد لا يمكن أن نعتبره ظاهرة اجتماعية لأن الظاهرة فى الأبحاث الاجتماعية باعتبارها حدثاً غير عادى لا يمكن ملاحظته ورصده وتجميع البيانات المتعلقة به ومناقشته وتحليله بطريقة علمية إلا إذا تجاوز عدد الأشخاص الذين لهم علاقة بهذه الظاهرة على الأقل ٨٪، فى حين أن

نسبة الإلحاد فى العالم حسب الدراسات السابقة الذكر لا تتجاوز نسبة ٧٪، فالإلحاد بهذا المعنى هو توجه جد محدود فى العالم ولم يبلغ درجة اعتباره ظاهرة اجتماعية بل هو بالأحرى ظاهرة صوتية، هكذا وصفه الدكتور عمروا الشريف الطبيب والباحث المتخصص فى أبحاث الإلحاد من الناحية النفسية وكذلك الدكتور المقرئ أبوزيد المتخصص فى علم اللسانيات، ومعنى أن الإلحاد ظاهرة صوتية وأن المُروِّجين للإلحاد ارتفع صوتهم فى الإعلام وبالغوا فى التسويق له فى وسائل التواصل الاجتماعى بإيعاز من أتباع الشيطان ومن الماسونيين، مع أنهم أقلية وشرذمة جد محدودة من الناس لا تطيقهم معظم شعوب العالم ومع ذلك يفرضون أنفسهم بالقوة عن طريق نشر الفكر الإلحادى وتداول شتائم فى حق الذات الإلهية فى مواقع التواصل الاجتماعى وفى أفلام نيت فليكس، ويشككون فى الأنبياء ويستهزئون ببعض ثوابت الدين ويسخرون من علماء الشريعة ويطرحون أسئلة وقحة تشكك فى شرع الله جل علاه.

وخلاصة القول فالإلحاد ليس ظاهرة بل هو ظويهرة ضئيلة الحجم مرتفعة الصوت وبهذا المعنى فالإلحاد كما يقول المثل الشائع تمخض الجبل فولد فأراً، أى أن هذه الموجة الإعلامية الكبرى وهذه المجهودات المضنية من طرف الماسونية لإضلال العالم وإخراجه من طريق الله جل علاه وإلقائه فى مستنقع الشيطان لم تفض فى نهاية المطاف إلا إلى اتباع شرذمة قليلة من سكان العالم للفكر الظلامى الإلحادى وهم ٧٪.

ومع ذلك يمكن التطرق إلى تفاصيل هذه النسبة المئوية الدولية الضعيفة، فأكبر عدد من الملحدين هو ستة وسبعين فى المائة «٧٦٪» متواجدون فى آسيا والمحيط الهادئ خصوصاً فى الصين وروسيا، و١٢٪ من الملحدين متمركزون بالقارة الأوروبية، و٥٪ منهم متواجدون فى أمريكا، ثم ٤٪ فى أمريكا اللاتينية، و٢٪ فى جنوب إفريقيا، و١٪ فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط. وهم فى المجمل ٧٪ من سكان العالم لا قيمة لهم ولا وزن لهم وهم يشعرون فى قرارة أنفسهم بأسوأ حالات الاكتئاب والقلق والاضطراب والشك والتردد ويعيشون فى الوهم والسراب والضلال والظلمات.

٣. الملحدون واعترافهم الغريزى بوجود الله

وفقاً لدراسة عالمية أخرى أجراها مركز بيو للأبحاث سنة ٢٠١٢ شملت ٢٣٠ دولة إقليم عبر العالم، فقد خلص هذا البحث الدولى إلى أن ٨٤٪ من الناس يتبعون ديناً معيناً، فى حين أن ١٦٪ من سكان العالم لا يتبعون أى دين. وخلاصة كل هذه الدراسات خصوصاً نتائج هذا البحث الأخير فإن الحالات النفسية الطبيعية المنتشرة بين أغلب سكان العالم هو الاعتراف بوجود الله جل علاه والميل الفطرى إلى التدين واعتناق الدين، فالله تبارك وتعالى هو من خلق النفس البشرية وهو من زرع فيها غريزة البحث عنه والتعرف عليه واعتناق الدين الذى هو صلة الوصل بين الإنسان وخالقه، فالدين بهذا المعنى هو حاجة من الحاجات الضرورية لدى الإنسان التى لا يمكنه الاستغناء عنها، فالأكل والشرب غذاء ضرورى لضمان استمرار الحياة فى الجسم والعلم حاجة ضرورية لتغذية العقل والدين حاجة ضرورية لتغذية الروح.

● والدين بهذا المعنى ليس شيئاً كمالياً يمكن الاستغناء عنه بل هو أهم الضروريات فى حياة البشرية كلها، وجوهر الدين هو معرفة الله جل فى علاه والتقرب إليه بالعبادة له وحده دون سواه، أى التوجه إليه بشكل مباشر والوقوف بين يديه الكريمتين والتعبير عن الاعتراف من الإنسان لربه بأن الله هو ربه والإنسان هو عبده الخاضع لجلال وجهه وعظيم سلطانه وشكره على النعم التى أنعم علينا بها نحن البشر، وهذه هى الفطرة التى فطر الله عليها الناس جميعاً فى كل القارات والدول وفى كل المدن والقرى وفى كل بقاع العالم وفى كل مراحل تاريخ البشرية جمعاء.

وهذا هو المقصود بقول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم: (فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (الروم:٣٠)، فالفطرة حسب تعريف هذه الآية هى معرفة الإنسان لربه وخالقه بشكل مباشر دون أن يحتاج للتعلم أو لمعلم يرشده لوجود الخالق، بل إنه يتعرف على الله تبارك وتعالى بغريزته التى زرعها الله فيه منذ كان جنيناً فى بطن أمه، والغريزة حسب تعريف علماء النفس هى دافع فطرى فى الإنسان وليست نشاطاً نفسياً مكتسباً.

وهذا أكبر دليل على أن الله تبارك وتعالى حين خلق أبونا آدم عليه السلام أو أى إنسان سيخرج من نسله، فقد زرع الله فى نفسه غريزة معرفة ربه جل علاه دون أن يحتاج لمن يعلمه كيف يهتدى لوجود خالقه، فقبل أن تلدنا أمهاتنا نحن بنى البشر فقد كنا فى عالم الذر، وهذه الكلمة أو لفظة الذر تعنى عالم الكائنات الصغيرة والدقيقة المتناهية فى الصغر، ومنها اشتقت كلمة ذرية بنى آدم.

فحين خلق الله عز وجل آدم عليه السلام أخرج من صلبه أو من ظهره (على مستوى العمود الفقرى) ذريته وهى البشرية كلها من أول إنسان سيعيش فى هذه الدنيا الى آخر فرد سيغادرها بعد قيام الساعة، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فأجابوه كلهم وبدون استثناء: نعم نشهد أنك ربنا وخالقنا وإلاهنا الذى أوجدتنا فى هذا الكون، وبعد اعترافهم بربوبية ربهم وعبوديتهم له سبحانه، أخذ منهم بعد ذلك ميثاقاً أن يعبدوه وحده دون غيره من الآلهة المبتدعة فأقروا بقبول هذا الميثاق، لذلك يسمى عالم الذر أيضاً بعالم الميثاق لأنه يتضمن أمرين أساسيين: أولهما إقرار من البشرية جمعاء من أولها الى آخرها بربوبية الله الواحد القهار، ثانيًا إقرار بالعهد بعبادة الله وحده دون سواه والدليل على حقيقة وقوع هذين الأمرين العظيمين مُوثق فى القرآن الكريم فى قول تعالى: قال تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ، وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الأعراف:١٧٢- ١٧٤). والميثاق الذى أخذه الله من بنى آدم على العبادة لوجهه الكريم وهذا هو المقصود بقول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم: (فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (الروم:٣٠).

د. رضى الحمرانى
اخصائى علم النفس
المغرب

خلاصة

ومجمل القول، فإذا كان الملحدون ينكرون ظاهريًا أمام الناس بأن الله جل علاه غير موجود وبأنهم يستطيعون أن يعيشوا فى سلام وسعادة وراحة البال بدونه جل علاه، فإنهم فى سريرتهم الباطنية الغريزية الفطرية بينهم وبين أنفسهم يعلمون علم اليقين بأن الله موجود ويشعرون فى أعماق قلوبهم بصدق هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار، فإن أنكروا هذه الحقيقة المطلقة الأزلية السرمدية فإنهم سيعيشون فى جحيم الوسواس والقلق والخوف الاكتئاب قال الله جل علاه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)) طه:١٢٤-١٢٦).